مقدمة

ترتبط سيرة الانسان بزمان ومكان ، فهى نتاج مكان معين وهو ما ندعوه بالبيئة ، وهى صنع زمن بعينه يؤثر فيها وتؤثر فيه حتى ليغدو كلاهما ملازما للآخر .

ولا تغنى سيرة الانسان فى حياته من مولده الى مماته عن هذا الأثر الذى تخلقه البيئة ويتركه الزمن على صفحاتها ، بل ان السيرة — سيرة أى عظيم أو بطل من أبطال التاريخ — لا تغدو سيرة تاريخية ، ولا تستوقف موكب التاريخ مالم تترك علاماتها البارزة على صفحة الزمان والمكان وهو ما نعبر عنه بالأثر التاريخى .

فالأثر التاريخى للسيرة هو الذى يجذب المؤرخين اليها ويحمل كتاب السير على الاهتمام بها وروايتها ، حتى لنجردها أحيانا من طابع الحياة الخاصة التى يحياها كل انسان ، ولا فرق فيها بين انسان وانسان ، نسلك بها ملحمة التاريخ صورة للزمان والمكان اللذين عاشتهما ، وان كان للذكاء الانسانى وللمواهب الفردية أن تفرض سلطانها على الحياة ، فانها لا تستطيع أن تتحرر قط من الأثر الطاغى للزمان والمكان فى نموها وتطورها بل وفى الأثر الذى تتركه على صفحة الزمان والمكان

وليست السيرة قصة فرد بعينه ، والا كانت أقرب الى الملهاة والمأساة من نتاج الأدب الانسانى منها الى حقائق التاريخ وحوافزه ، فالسيرة التاريخية ، كالتاريخ ، تنبع من الحقيقة ، والحقيقة وحدها مهما كانت جافة هى التى تكون سطورها وهى التى تعكس آثارها جلية لرواة التاريخ وقرائه ودارسيه ، وهى فى هذا خلاصة لعملية مزج رائع من عمل الانسان وأثر البيئة وطابع الزمان .

ولا أحسب سيرة ، يشدها الزمن اليه ويطبعها المكان بطابعه ، كما تشد الزمن اليها ، وتطبع المكان بطابعها كسيرة أستاذ الجيل أحمد لطفى السيد ، فقد عاش لطفى السيد قرابة قرن الا قليلا من تاريخ مصر ، وكان قرنا حافلا بالأحداث شهد من موجات الصراع الفكرى والسياسى والاجتماعى ما طبع تاريخ مصر فى تلك الفترة بطابع خاص متميز قد تغلق دراسته حتى على المتخصصين ما لم يتبينوا كافة الحوافز والنزعات التى تحدده وتؤثر فيه .

وفى تلك الفترات التاريخية التى تعج بالأحداث وتحفل بشتى الحوافز والنزعات ويشتد فيها الصراع الفكرى والنفسى فى الأمة ، ويتجاذب التجديد والمحافظة حيوية التطور الاجتماعى — اذ لا يشتد هذا الجذب بين المحافظة والتجديد مالم تحفزهما حيوية التطور الى الصراع — فى مثل تلك الفترات يعجم الأمر وتبهم الآراء ولا تعرف الأمة طريقها البين ، حتى يكون العظيم أو البطل الذى يتبين حوافزها ويعبر عن ارادتها ، وقد تتنكر له

أول الأمر ، الا انها لا تلبث حتى تجد نفسها وراءه مؤمنة به مستمعة اليه ، تتمثل ارادتها فى ارادته وهديها فى هديه .

وقد جاء البطل فى تلك الفترة من تاريخ مصر فى صورة « معلم » أخذ يعرف الناس بما غاب عنهم وكشف لهم عن حقيقة حوافزهم ونزعاتهم التى تاهت عنهم وضلت سبيلها الى عقولهم وقلوبهم .

كان الناس ينشدون الحرية باحساسهم فعلمهم كيف ينشدونها بعقولهم ، وكان الناس يطلبون الاستقلال ولا يعرفون حقيقته فعرفهم ان الاستقلال هو حرية الوطن وحرية المواطن ، وكان الناس ناقمين على الاستبداد والحكم الجائر ، ولا يعرفون له ردا الا فى ارادة الحاكم العادل ، فعرفهم أن الحكم الجائر مصدره غفلة الأمة عن حقها وتسليمها للحاكم بما ليس من حقوقه ، وكان الناس ينشدون المساواة ولا يطلبونها الا من ارادة الحاكم وتفضله ان شاء ، فان لم يشأ فالأمر لصاحب الأمر ، فعلمهم أن لهم حقوقا وانهم مصدر السلطة التى تستطيع أن تقرر المساواة ، وان هذه المساواة انما تتمثل فى الديمقراطية .

ولم يعرف الناس معنى الديمقراطية ، وكانت لفظا غريبا عليهم لا دلالة له فى أفهامهم ، فأخذ يعرّف الناس بالديمقراطية ويشرح لهم السبيل اليها .

وكان الناس يتطلعون الى الارتقاء ويدركونه على غير حقيقته فأخذ يشرح لهم الارتقاء فى شتى مظاهره السياسية والاجتماعية والفنية وان السبيل اليه هو التعليم وطلب العلم والمعرفة .

وأصبح التعليم والعلم غاية حياته حتى قال البشرى على لسانه حين صور مرآته :

« من أراد الدنيا فعليه بالعلم ومن أراد الآخرة فعليه بالعلم ومن أرادهما معا فعليه بالعلم » . وكان هذا المعلم هو أحمد لطفى السيد .

ولا أجد فى سيرته الا سيرة عصره ولا أجد فى عقيدته وفلسفته الا تعبيرا عما فى نفوس المصريين وتاهوا عنه ، فان أغفلت بعض جوانب حياته الخاصة فلأنه قد عاش حياة طبيعية خالصة كغيره من المصريين الا ما كان من انعكاس سلوكه الخاص على سلوكه العام مما يؤثر فى أحداث حياته وموقفه من أحداث عصره ، ولأن حياته كانت سوية الى حد بعيد ، ولأنه كان رجلا عاما أكثر مما كان رجلا يعنى بشئونه الخاصة ويؤثرها باهتمامه فلم يكن لحياته الخاصة أثر على حياته العامة .

وفى هذه السيرة التى أقدمها للقارىء عن حياة أستاذ الجيل نرى تاريخ مصر وتطورها الاجتماعى والسياسى والفكرى مطلا فى كل سطر من سطورها فهى سيرة أمة فى قرن من الزمن ، وهى سيرة بطل من أبطالها .

دكتور حسين فوزى النجار

المعادى فى { ٧ رمضان سنة ١٣٨٤
٩ يناير سنة ١٩٦٥